أيام الطواف

لا يدهشك أيها القارئ أن نضع لعبث ابن أبي ربيعة هذا العنوان الغريب، فقد كان يتخذ أيام الحج موسمًا للهو والمجون، وإنه ليقول:

أيهـــا الـــرائح المجـــدُّ ابتكـــارا ... قـــد قـــضى مـــن تهامـــةَ الأوطـــارا
مـــن يكـــن قلبـــه صـــحيحًا ســـليمًا ... ففـــؤادي بـــالخيف أمـــسى مُعـــارا
ليـــت ذا الـــدهر كـــان حـــتمًا علينـــا ... كـــل يـــومين حجـــةً واعـــتمارا[1]

وقد أنشد ابن أبي عتيق هذا الشعر فقال له: الله أرحم بعباده أن يجعل عليهم ما سألته ليتمَّ لك فِسقك! وأنشده عبد الله بن عمر فقال: يا ابن أخي! أما اتقيت الله حيث تقول:

ليـــت ذا الـــدهر كـــان حـــتمًا علينـــا ... كـــل يـــومين حجـــةً واعـــتمارا

فقال له عمر: بأبي أنت وأمي! إني وضعت ليتا حيث لا تغني.

بَيْد أنه لا يصح لنا أن ننسى أنه لم يكن يفوز في كل مرة بما يبغي شيطانه من زيارة تلك المناسك والتعرض لكرائم النساء. فقد رُوي أن امرأة جميلة قدمت مكة، فنظر إليها وهو يطوف فوقعت في قلبه، فدنا منها فكلمها فلم تلتفت إليه، فلما كان في الليلة الثانية جعل يطلبها حتى أصابها، فقالت له: إليك عني يا هذا، فإنك في حرم الله وفي أيام عظيمة الحرمة! فألحَّ عليها يكلمها حتى خافت أن يشهرها. فلما كانت الليلة الأخرى قالت لأخيها: أُخرج معي فأرني المناسك، فإني لست أعرفها، فأقبلت

(١) قال عمر هذا الشعر في أم عمرو بنت مروان، وكانت بعثت إليه بألف دينار، ورجته أن لا يذكرها في شعره، فقبلها واشترى بها طيبًا فأهداه إليها فردته، فقال: إذًا والله أنبه الناس، فيكون مشهورًا فقبلته.

وهو معها، فلما رآها عمر أراد أن يعرض لها، فنظر إلى أخيها معها فعدل عنها، فتمثلت المرأة بقول النابغة:

تعدو الذئاب على من لا كلاب لهُ وتتقي صولة المستأسد الحامي

وقد قال المنصور حين حُدِّث بهذا الخبر: ودِدْت أنه لم تبق فتاة من قريش في خِدرها إلا سمعت بهذا الحديث.

وقد وقع له مثل هذا مع أبي الأسود الدؤلي إذ حجَّ ومعه امرأته، وكانت جميلة، فبينما هي تطوف بالبيت إذ عرض لها، فأتت أبا الأسود فأخبرته، فأتاه أبو الأسود فعاتبه، فقال له عمر: ما فعلت شيئًا. فلما عادت إلى المسجد عاد فكلمها، فأخبرت أبا الأسود فأتاه في المسجد وهو مع قوم جالس فقال له:

وإني ليثنيني عن الجهل والخنا وعن شتم أقوامٍ خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وبقيا وأنني كريمٌ ومثلي قد يضر وينفع[1]
فشتان ما بيني وبينك إنني على كل حال أستقيم وتظلعُ[2]

فقال له عمر: لست أعود يا عم لكلامها بعد هذا اليوم. ثم عاود فكلمها، فأتت أبا الأسود فأخبرته، فجاء إليه، فقال له:

أنت الفتى وابن الفتى وأخو الفتى وسيدنا لولا خلائق أربعُ
نكُولٌ عن الجُلَّى وقرب من الخنا وبخلٌ عن الجدوى وأنك تُبَّع[3]

(١) البقيا: هي الرحمة والإشفاق.
(٢) الظلع: العرج والغمز في المشي.
(٣) التبَّع والتَّبع: هو الذي يجد في طلب النساء.

ثم خرجت وخرج معها أبو الأسود مشتملًا على سيف، فلما رآهما عمر أعرض عنها، فتمثل أبو الأسود:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ... وتتقي صولة المستأسد الحامي

وإن له لحوادث أشنع من هاتين في الضياع، فقد رأى امرأة من العراق وهو يطوف فأعجبه جمالها، فمشى معها حتى عرف موضعها، ثم أتاها فحادثها وناشدها وناشدته، وخطبها فقالت: إن هذا لا يصلح هاهنا. ولكن إن جئتني إلى بلدي وخطبتني إلى أهلي تزوجتك. فلما ارتحلوا جاء إلى صديقٍ له من بني سهم وقال له: إنَّ لي إليك حاجة أريد أن تساعدني عليها. فقال له: نعم، فأخذ بيده ولم يذكر له ما هي، ثم أتى منزله فركب نجيبًا له وأركبه نجيبًا آخر، وأخذ معه ما يصلحه، وسارا لا يشك السهميُّ في أنه يريد سفر يوم أو يومين، فما زال يسرع حتى لحق بالرفقة، ثم سار بسيرهم يحادث المرأة طول طريقه ويسايرها، وينزل عندها إذا نزلت حتى ورد العراق، فأقام أيامًا ثم راسلها يتنجزها وعدها، فأعلمته أنها كانت متزوجة ابن عم لها، وولدت منه أولادًا ثم مات وأوصى بهم وبماله إليها ما لم تتزوج، وأنها تخاف فرقة أولادها وزوال النعمة، وبعثت إليه بخمسة آلاف درهم واعتذرت، فردها عليها ورحل إلى مكة، وقال في ذلك:

نام صحبي ولم أنم ... من خيال بنا ألَمّ

طاف بالرَّكب مَوْهِنًا ... بين خاخٍ إلى إضَمْ[1]

ثم نبهت صاحبًا ... طيِّب الخيم والشَّمِيم[2]

أريحيًّا مُساعدًا ... غير نِكْس ولا بَرَم[1]

---

(١) خاخ: موضع بين الحرمين -وإضم: واد بجبل تهامة، وهو الوادي الذي فيه المدينة.

(٢) الخيم -بالكسر- السجية -والشيم جمع شيمة، وهي الطبيعة.

قلـــت يـــا عمـــرو شـــفني لا عـــيجُ الحـــب والألم
إيـــتِ هنـــدًا فقـــل لهـــا ليلـــة الخيـــف ذي الـــسَّلَم(٢)

ويظهر أن الخيبة التي رمته بها تلك السيدة العراقية، جعلته يتردد في متابعة الملاح إلى العراق، فقد تشهت فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية أن يتبعها ليتزوجها هناك، ولم نعلم أنه هشَّ لتلبية ذلك النداء. ومن قصته معها أنها حجت، فراسلها ووعدها أن يتلقاها مساء الغد، وجعل الآية بينه وبينها أن تسمع ناشدًا ينشد بغلته في زقاق الحاج، إن لم يمكنه أن يرسل رسولًا، يُعْلِمُهَا بمصيره إلى المكان الذي وعدها.

فلما تلاقيا وتحادثا خطبها فقالت: أما هاهنا فلا سبيل إلى ذلك، ولكن إن قدمت إلى بلدي خاطبًا تزوجتك. وقد قال في وصف ما كان بينهما من التراسل والتواعد والتَّلاق:

تـــشط غـــدًا دار جيراننـــا وللـــدارُ بعـــد غـــدٍ أبعـــدُ
إذا ســـلكت غمـــر ذي كنـــدةٍ مـــع الركـــب قـــصد لهـــا الفرقـــد(٣)
عراقيـــةٌ وتهـــامي الهـــوى يغـــورُ بمكـــة أو ينجـــد(٤)
وحـــثَّ الحـــداة بهـــا عيرهـــا سراعًـــا إذا مـــا ونـــت تطـــرد(١)

---

(١) النكس -بالكسر- الضعيف -والبرم بفتحتين الذي لا نفع فيه.

(٢) لم نقف على بقية هذه القصيدة.

(٣) غمر ذي كندة: موضع وراء وجرة بينه وبين مكة مسيرة يومين -الفرقد: نجمان في السماء من نجوم الدب الأصغر وهي في الشمال، ويقال لهما: الفرقد بالإفراد والفرقدان بالتثنية. ومعنى أن الفرقد قصد لها أنها تتجه إليه؛ لأن العراق في الشمال الشرقي من مكة.

(٤) يغور: يأتي الغور وهو المطمئن من الأرض -وينجد: يأتي النجد وهو ما غلظ من الأرض وارتفع.

هنالك إما تعزّي الفؤاد ... وإما على إثرها تكمدُ
وليست ببدع إذا دارُها ... نأتْ والعزاء إذا أجلدُ
صرمتُ وواصلت حتى علمـ ... ـت أين المصادر والمَوردُ
وجربت من ذاك حتى عرفـ ... ـتُ ما أتوقى وما أعمد
دعاني من بعد شيب القذا ... ل رئمٌ له عنقٌ أغيد[٢]
وعينٌ تصابي وتدعو الفتى ... لما تركه للفتى أرشدُ
فتلك التي شيّعتها الفتاة ... إلى الخِدر قلبي بها مقصد
تقول وقد جدَّ من بينها ... غداة غدٍ عاجلٌ مُوفد
ألستَ مشيّعنا ليلةً ... نُقضّي اللبانة أو نعهد
فقلت بلى قلَّ عندي لكم ... كلال المطيِّ إذا تجهد
فعودي إليها فقولي لها ... مساءَ غدٍ لكم موعد
وآية ذلك أن تسمعي ... إذا جئتكم ناشدًا ينشد
فرحنا سِراعًا وراح الهوى ... إليها دليلًا بنا يقصد
فلما دنونا لجرس النُّبا ... ح والضوء والحيُّ لم يرقدوا[٣]
نأينا عن الحيِّ حتى إذا ... تودع من نارها الموقد[٤]
وناموا بعثنا لها ناشدًا ... وفي الحيِّ بغية من ينشد
أتتنا تَهادى على رقبة ... من الخوف أحشاؤها ترعد[١]
تقول وتظهر وجدًا بنا ... ووجدي وإن أظهرت أوجد

---

(١) الحداة: ساقة الإبل الذين يتغنون لها لتنشط في السير -وتطرد: تساق.
(٢) القذال كسحاب جماع مؤخر الرأس.
(٣) الجرس بالفتح الصوت.
(٤) تودع الموقد: خبت ناره وانطفأت.

لمـا شـقائي تعلقـتكم وقـد كـان لي عـنكم مَقْعَـد[٢]
وكفـتْ سـوابق مـن عـبرةٍ علـى الخـد جـال بهـا الإثمـد[٣]
فـإن التـي شـيعتنا الغـداة مـع الفجـر قلبـي بهـا مقـصد[٤]

وقد جاء في خبره مع فاطمة هذه أنه لما جاءها أرسلت بينها وبينه سترًا رقيقًا تراه من ورائه ولا يراها، فجعل يحدثها حتى استنشدته، فأنشدها هذه القصيدة، فاستخفها الشعر فرفعت السجف، فرأي وجهًا حسنًا في جسم ناحل، فخطبها، وأرسل إلى أمها -وكانت معها- بخمسمائة دينار، فأبت وحجبته، وقالت للرسول: لا تعد إلينا. فغمَّ ذلك الفتاة، فقالت لها أمها: قد قتلك الوجد به، فتزوجيه!

قالت: لا والله، لا يتحدث أهل العراق عني أني جئت ابن أبي ربيعة أخطبه؛ ولكن إن أتاني إلى العراق تزوجته.

ويقال: إنها راسلته وواعدته أن تزوره، فأجمر بيته وأعطى المبشر مائة دينار، فأتته وواعدته إذا صدر الناس أن يشيعها، وجعلت علامة ما بينهما أن يأتيها رسوله ينشدها ناقة له ضلت. فلما صدر الناس فعل. وقد قال في وصف ذلك:

قـال الخلـيط غـدًا تـصدُّعُنا أو بعـده أفـلا تـشيعنا[١]
أمـا الرحيـل فـدون بعـد غـدٍ فمتـى تقـول الـدار تجمعنـا[٢]

---

(١) تهادى: تتمايل في خفة ولين -والرقبة: الحذر والخوف.
(٢) كان لي مقعد عنكم: كان لي عنكم غنى.
(٣) الإثمد: حجر الكحل.
(٤) مقصد: مقتول، من قولهم: رماه فاقصده إذا قتله مكانه.

قال أبو حية النميري:

رمين فأقصدن القلوب ولم تجد دمًا مائرًا إلا جرى في الحيازم

لتشوقنا هندٌ وقد علمت ... علمًا بأن البين يفزعنا
عجبًا لموقفنا وموقفها ... وبسمع تربيها تراجعنا[٣]
ومقالها سِرْ ليلةً معنا ... نعهد فإن البين فاجعنا[٤]
قلت العيون كثيرةٌ معكم ... وأظن أن السير مانعنا
لا بل نزوركم بأرضكم ... فيطاع قائلكم وشافعنا
قالت أشيءٌ أنت فاعله ... هذا لعمرك أم تخادعنا
بالله حدِّث ما تؤمله ... واصدق فإنَّ الصدق واسعنا
اضرب لنا أجلًا نَعُدُّ لهُ ... إخلاف موعده تقاطعنا[٥]

وإنا لنعجب حين نرى الرجال يقدِّرون مصير الحسان من بناتهم فيهجرون مكة فرارًا من ذلك الشاعر الخليع: فقد وُلد لرجل من بني جمح جارية لم يولد مثلها بالحجاز حسنًا، فقال: كأني بها وقد كبرتْ فشبب بها عمر بن أبي ربيعة وفضحها ونوَّه باسمها كما فعل بنساء قريش، والله لا أقمت بمكة! فباع ضيعة له بالطائف ومكة، ورحل بابنته إلى البصرة، فأقام بها، وابتاع هناك ضيعة، ونشأت ابنته من أجمل نساء زمانها.

ومات أبوها فلم تر أحدًا من جُمح حضر جنازته، ولا وجدت مسعدًا ولا مواسيًا، فقالت لمرضع لها سوداء: من نحن؟ ومن أي البلاد نحن؟ فخبرتها. فقالت:

---

(١) ترباها مثنى ترب بالكسر وهي الخدينة - وتاربت الجارية الجارية خادنتها. قال كثير:

تتارب بيضا إذا استلعبت ... كادم الظباء ترف الكباثا

(٢) الخليط: الجيرة الأعزاء الذين يخلطهم المحب بنفسه -والتصدع: التفرق.

(٣) تقول: معناها تظن في هذا البيت.

(٤) نعهد: نأخذ عليك العهد والميثاق أن لا تنسانا بعد الفراق.

(٥) نعد له: أي نحسب الأيام لحلوله حتى إذا أخلفت قاطعناك.

لا جرم، والله لا أقمت في هذا البلد الذي أنا فيه غريبة. فباعت الضيعة والدار وخرجت في أيام الحج، وكان عمر يقدم في ذي الحجة فيعتمر ويحل، ويلبس ما شاء من الحلل والوشي، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويرسل لمته، ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات، ويتلقى المدنيات إلى مر، ويتلقى الشاميات إلى الكديد، فخرج يومًا للعراقيات فإذا قبة مكشوفة فيها جارية كأنها القمر تركب معها جارية سوداء. فقال للسوداء: من أنت؟ ومن أين أتيت يا خالة؟ فقالت: لقد أطال الله تعبك إن كنت تسأل هذا العالم: من هم ومن أين هم؟ قال: فأخبريني عسى أن يكون لذلك شأن. قالت: نحن من العراق، فأما الأصل والمنشأ فمكة، وقد رجعنا إلى الأصل ورحلنا إلى بلدنا. فضحك، فلما نظرت إلى سواد ثَنِيَّتَيْه قالت: قد عرفناك. قال: ومن أنا؟ قالت: عمر بن أبي ربيعة! قال: وبمَ عرفتني؟ قالت: بسواد ثنيتيك وبهيئتك التي ليست إلا لقريش[1]. فأنشأ يقول:

أصبح القلب في الحبال رهينًا ... مُقصدًا يوم فارق الظاعنينا

عَجِلت حُمةُ الفراق علينا ... برحيل ولم نخف أن تبينا[2]

لم يرعني إلا الفتاة وإلا ... دمعها في الرداء سحًّا سنينا[3]

ولقد قلت يوم مكة سرًّا ... قبل وَشك من بينكم نولينا[4]

أنت أهوى العباد قربًا ودلا ... أو تنيلين عاشقًا محزونا

---

(١) سواد ثنيتي عمر بن أبي ربيعة لم يكن طبيعيًا؛ وإنما عرض له حين ضربته الثريا بظاهر كفها؛ وكان النساء إذ ذاك يتختمن في أصابعهن العشر، فأصابت الخواتيم ثنيتيه العليين فنغضتا وكادتا تسقطان، فقدم البصرة فعولجتا له فثبتتا واسودتا، فشاع خبره وعيره بذلك خصومه من الشعراء.

(٢) حمة الفراق بالضم: ما قدر وقضي.

(٣) سنين: متدفق.

(٤) الوشك: الإسراع.

قـاده الطـرف يـوم مـرَّ إلى الحيـ ـن جهـارًا ولم يخـف أن يحينـا[1]
فـإذا نعجـة تراعـي نعاجًـا ومهًـا يهـج المنـاظر عينـا[2]
قلـت مـن أنـتم فـصدت وقالـت أمبـد سـؤالك العالمينـا[3]
نحـن مـن سـاكني العـراق وكنـا قبلـه قـاطنين مكـة حينـا
قـد صـدقناك إذ سـألت فمـن أنـ ـت عـسى أن يجـرَّ شـأنٌ شـئونا
ونـرى أننـا عرفنـاك بالنعـ ـت بظـنٍّ ومـا قتلنـا يقينـا
بـسواد الثنيتـين ونعـتٍ قـد نـراه لنـاظر مـستبينا

ولم يزل بها عمر حتى تزوجها، وولدت له.

ويقال: إنه أنشأ هذه القصيدة في التشبيب برملة بنت عبد الله الخزاعية، وأن الثريا بنت عليٍّ لما سمعت بها هجرته، في حديث سنعود إليه بعد فصول.

ولقد نعلم أن مِلاح النساء كنَّ يتحدثن عنه في مناسك الحج في لهفة وشوق، وكان يقدَّر له أحيانًا أن يسمع ما يلهجن به من ارتقاب غزله، وانتظار لقياه، فيضطرم قلبه، وتلتهب أحشاؤه، كلفًا بمن يتساقين على ذكره كئوس النجوى والسرار. فقد روي أنه بَصُر في منصرفه من المزدلفة بامرأة جميلة في هودج، وسمع عجوزًا معها تناديها: يا نوار استتري، لا يفضحك ابن أبي ربيعة. فأتبعها وقد شغلت قلبه حتى نزلت بمنى في مضرب قد ضُرب لها، فنزل إلى جانب المضرب، ولم يزل يتلطف حتى جلس معها وحادثها، وإذا أحسن الناس وجهًا وأحلاهم منطقًا، فزاد

---

(١) الحين بالفتح الهلاك.

(٢) النعاج هنا بقر الوحش –والعين: الجميلات العيون.

(٣) معنى عجز هذا البيت كما في اللسان: أمقسمٌ أنت سؤالك على الناس حتى تعمهم؟ من قولهم: أبد المال والعطاء إذا فرقه في القوم. وهو معنى قولها له: لقد أطال الله تعبك إن كنت تسأل هذا العالم: من هم ومن أين هم؟

ذلك في إعجاب عمر بها، ثم أراد معاودتها فتعذر ذلك عليه، وكان آخر عهده، فقال فيها:

علق النوار فؤاده جهلًا ... وصَبًا فلم تترك له عقلا

وتعرضت لي في المسير فما ... أمسى الفؤاد يرى لها مِثْلا

ما ظبيةٌ من وحش ذي بقر ... تغذو بسقط صريمة طِفلا[1]

بألذ منها إذ نقول لنا ... وأردت كشف قناعها مهلا

دعنا فإنك لا مكارمةً ... تجزي ولست بواصل حبلا

وعليك من تبل الفؤاد وإن ... أمسى لقلبك ذكره شغلا

وفي الحق أن ابن أبي ربيعة لم يكن في حاجة إلى تصيد النساء، فقد كنَّ عليه أحرص، وإلى تصيده أحوج، وسنرى حين نعرض لإخباره مع هند بنت الحارث وسكينة بنت الحسين كيف كانت تشقى الرسل في البحث عنه، كلما حنت معشوقاته إلى وجهه المشرق، وحديثه الطريف، فلنكتف الآن بالإشارة إلى تلك السيدة الأموية التي قدمت معتمرة قبل أوان الحج، فمرت عليه وهي تطوف، وكان في نفر من بني مخزوم، يتحدثون وهم جلوس، وقد فرعهم طولًا، وجهرهم جمالًا وبهرهم بيانًا، فمالت إليهم، ونزلت فأطالت معهم الحديث، ولم تنصرف حتى ظفرت بقلب ذلك الشاعر الجميل، ولم يزل يتردد إليها إلى أن انقضت أيام الحج فرحلت إلى الشام، وفيها يقول:

تأوَّب ليلى بنصب وهمٍّ ... وعاودت ذكري لأم الحكم[1]

فبتُّ أراقب ليل الستا ... م، من نام من عاشق لم أنم

---

(١) ذو بقر: واد بين أخيلة حمى الربذة -وسقط الصريمة. منتهاها - والصريمة الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر.

فإمـــا تريـنـــي عـــلى مـــا عـــرا ضـــعيف القيـــام شـــديد الـــسقم
كثـــير التقلـــب فـــوق الفـــرا ش مـــا إن تُقـــل قيـــامي قـــدم
بآنـــسةٍ طيِّـــب نـــشرها هـــضيم الحـــاش عذبـــة المبتـــسم[٢]

وفي هذه الحوادث التي سقناها غنًى لمن أراد أن يُقدِّر إلى أي حد كان ابن أبي ربيعة يتلمس أسباب الهوى، ويترقب مواسم الجمال، وفي هذه الحياة المرحة، الحافلة بفرص اللهو ومتع الشباب، قال ذلك الشعر الحي الذي يوقظ غافيات المنى وهاجعات الأهواء. فلننتقل إلى الحديث عن طائفة من معشوقاته بشيء من التفصيل، ليتم لنا ما أردناه من عرض الظروف التي قضت بأن يقف حياته على الحب، وشعره على النساء[٣].

(١) النصب -بالفتح والضم-: الشر.

(٢) النشر الرائحة -وهضيم الحشا: ضامرة البطن.

(٣) أهم مرجع لهذا الفصل هو الجزء الأول من كتاب الأغاني.